

## صوت النائب وصوت الناخب

بقلم حضرة صاحب المعالي الأستاذ ابراهيم دسوقي أباطه

وزير الشؤون الاجتماعية

”التي معالي هذه الماخضة من محطة الاذاعة الاسلامكية قبيل نقله

منصب الوزارة، وقد استأذناه في نشرها فأذن“

المحرر

دعنى وزارة الشؤون الاجتماعية للكلام عن ”صوت الناخب“ وعينت هذا العنوان على ما فيه من غموض، فحاولت محاولة تلميذ يؤدى امتحانه أن أكتب فى الموضوع بغير رجوع إلى من اختار العنوان ووضع الامتحان، ولكنى آثرت أن أحدثكم عن ”صوت النائب وصوت الناخب“ بما افترضت أنه يدخل عن قرب أو بعد فى موضوع الامتحان، وأرجو أن تسمحوا لى بأن أبدأ بصوت النائب فأتكلم عنه من جهة تقدير مكانته وتقويمه فى ميزان الاحترام العام، ثم عن صوته عند الدعاية الانتخابية، فقد جرى على السنة النامس مجرى القول المنثور ”صوت الشعب من صوت الله“ ولما كان النائب يمثل الشعب فلعله يظن أن من حقه أن يطمع فى الادعاء بأن فى نبرات صوته شيئا من هذا المعنى، أو يتواضع قليلا فيزعم أن صوته يحاكي على الأقل بعض أصوات الملائكة. أما أنا فأؤكد لكم أن صوته فى بعض الأحيان يكون أقرب إلى صوت الشيطان عندما يكون بمن أعطاهم الله هبة الخطابة والتأثير الشخصى وقوة الإرادة، وحرمتهم من طهارة الضمير وحب الخير والإخلاص للوطن ...

ومن قديم الزمان لم يكن ”بروتس“ على حق حينما حمل على يوليوس قيصر ذلك العاهل العظيم الذى خاض المارك ظافرا، وأخضع للرومان أقطارا شاسعة وعاد يحمل إلى روما كآليل الغار، ثم رفض التاج الذى عرض عليه غير مرة، ومع هذا فإن بروتس صديقه الحميم اتهمه بالجنس والأناية، وسمع فيه أقوال الوشاة الحاسدين من أعدائه، ثم تأمر عليه معهم وهجموا عليه ذات يوم يلعنونه بسبب فهم وهو يناضل عن نفسه مستبسلا حتى إذا رأى بروتس يتنقض عليه شاعرا سيفه ليخضبه من دماؤه أغمض عينيه وألقى حسامه وغطى بردائه رأسه ليكلا يرى ذلك المنظر الوحشى المؤلم: منظر صديقه يلعنه، واستسلم للموت ونطق بكلمته المشهورة ”حتى أنت يا بروتس!“ ثم سقط قتيلًا، بعد أن رأى خيانة بروتس الذى كان يعتبره خير الأصدقاء، ومثال الحب والإخلاص والوفاء، قضى وهو يقول: ”لا خير إذن فى الحياة“.

ولم يكن "روبسبير" نائب باريس ورئيس اليقوبيين على حق عندما أعلن الحرب على رجال الجيروندي وكان حزبهم أول من نادى في فرنسا بالحرية ، وقام بالنهضة الوطنية ، وشيد دعائم الديمقراطية ، وما زال بهم حتى أهدر دماءهم قتل وسجن أكثر زعمائهم وشتت شمل صفوتهم وأخيارهم .

ولم يكن صوت "مارا" حبيب الشعب صوتا ملائكما عندما كان يلغ في دماء أبناء وطنه الذين يخالفونه في الرأي ويطلب حزبه بالإمعان في إهراق الدماء "دماء الجيروندي والملكين" وكان يصدر جريدة حبيب الشعب "L'ami au peuple" ومنها الى الآن أعداد محفوظة في مكتبة باريس ، كانت من أول حرف إلى آخر حرف تحض على القتل والفتك والسفك ، وكانت تجعد من الشعب أذانا صاغية فكانت المقاصل لا تكفى لإعدام ألوف المواطنين إطفاء لظما لحكام فرنسا اليقوبيين الى الدماء ، وقد سمي الفرنسيون هذا الوقت عصر الرعب "L'ère de la terreur" أقاموا لهذا النائب "مارا" تمثالا في البرلمان ولكن لم يمض وقت طويل على الخلاص من عصر الرعب حتى حطم الشعب هذا التمثال ، تمثال المجرم الدموي الأثيم ، وجاء عصر الجيروندي بعد ذلك فأخرجوا من السجون واستولوا على الحكم بعد حين .

ضربت المثل بالقديم لأبرهن على أن صوت النائب قد لا يكون دائما صوت الحق والعدل والحرية .

ولنبدا الآن بالكلام عن النائب عندما يرتفع صوته بالدعاية الانتخابية لنفسه ، فمن المرشحين من يصون صوته عن العيث بأحلام الشعب فلا يداهن ولا يخاتل ولا يمين ، ومنهم من لا يكثر كثيرا لشرف الدعوة فيختلف صوته باختلاف البيئة التي ينتمى إليها والبيئة التي يدعو لنفسه فيها فتراه يتنكر أحيانا لماضيه ، ويتكلم من غير عقيدة لا يهتم إلا بأن يتلقى الجمهور ورضيه ، ثم هو فوق ذلك يحمل على خصمه الحملة الشعواء ويرهيه بما يتفر منه قلوب الدهماء . ومما أذكره دعاية طريفة قام بها رجل من أعيان الريف كان معروفا بالمكر وسعة الحيلة وكان منافسه كبيرا من رجالات مصر وعالمنا من أقطاب الأدب والسياسة وكان هذا العالم السيامي يتغنى بالديموقراطية ويحدها وينادى بها حتى اشتهر عنه ذلك . وللشرف والديموقراطية كما تعلمون هي حكم الشعب بواسطة الشعب خير الشعب ، لكن خصمه انتهز الفرصة وأخذ يطوف البلاد ويقابل الناخبين ويوسوس في عقولهم بأن الديمقراطية إنما هي المساواة وأن ذلك السيامي المصري يعترف بأنه ديموقراطي وغرضه الذي يرمى إليه من هذا هو مساواة النساء بالرجال في حقوقهن فكما أن الرجل من حقه أن يتزوج بأربعة من النساء فالمرأة من حقه أن تتزوج بأربعة من الرجال ، ويطلب إليهم أن يسألوه ليسمعوا من فم ذلك الاعتراف ، وصدق الناخبون الفرية ، وكان من يريد أن يستوثق منها يمر بالسياسي العظيم

فيسأله "هل أنت ديموقراطي؟" فيقول له: "نعم" فينفض عنه قائلا: "طيب، سلام عليكم" بغير أن يدخل معه في التفاصيل، ثم ينشر ذلك في الملاح، وهكذا فشل ذلك النابغة في انتخابات الجمعية التشريعية.

وأعرف مرشحا شديدا الخطر، من امرأة فقيرة لا يملك من حطام الدنيا شيئا، ولكنه يستفيد من هذا الفقر ويستغله أكل استغلال فهو يندس بين الفلاحين في ذلة وانكسار، رث الثياب تبدو عليه آثار القافة ويقول لهم، "اننى مثلكم" فقير لا أملك شيئا قد كنت عاملا صغيرا ألقاضى قرشين في اليوم، ثم انتسبت إلى كلية الحقوق فأصبحت محاميا ولكننى شعرت بألم الجوع والحرمان وما زلت رقيق الحال لا أعرف إلا الشقاء والبؤس فأنا منكم أشعر بالأمكم وما تقاسونه من استعباد وذل، وأنى ما زالت تلبس الجلدية الزرقاء وتحمل على رأسها الحزرة فتجن من أسرة واحدة. ثم يبيت في بيوت الفلاحين متقلبا من دار إلى دار لا يجد في ذلك مضضا ولا غضاضة. ويقضى ليلته بينهم يناجيهم بما يملك به عواطفهم، ويستولى به على نفوسهم، ويبالغ في وصف ارسقراطية خصمه وعظمه وتعاليه، فيقول للنابحين أنى لكم أن تصلوا إليه ودونه ألف حجاب، وكيف يشعر بما أتم فيه من ضيق وضنك؟ أنى له أن يشعر بما يشعرون به وهو يتقلب في قصره العظيم على أرائك من الترف والنعيم؟ وإذا صادف هذا المرشح امرأة وقف بين يديها يخطب ولقبها بالسيدة النبيلة، ثم يحرضها وذكورها على منافسه، ويتركها مشدوكة بعد أن يكرر على سمعها قوله "قولى لزوجك لا تكفري قولى لزوجك لا تكفري" ثم ينطلق من قرية إلى قرية ينثف فيها سموم دعاياته فيصيب بالفوضى مهيجا عواطفهم، ثميرا فيهم عاطفة البغض والكراهية والعداء. وقد فهمت من مراقبة مثل هذا المرشح كيف تنبت الشيوعية وتتغفل في نفوس الجماهير الساذجة التي سرعان ما تصدق المخادعين والاندجالين المضللين فيقلت زمامها من أيدي الحكماء والمتقفين المفكرين.

أما صوت النائب في مجلس النواب فيجب أن يضعه حيث يكون الحق ومصلحة الوطن. فإن النائب قد أقسم يمينا أن يؤدي واجبه بالذمة والصدق، ولكنه يرى بجانب الذمة والصدق حزبا وحكومة يجب أن يدخل في حسابه. أما من جهة الوطن فإن الوطن غفور رحيم. وتعدد الأحزاب من لوازم الحياة النيابية لسوء الحظ، وله فوائد ومضار، فوجود الأحزاب كارثة، وزوالها نكبة. ولا يتسع الوقت لأتكلّم عن الأخطار التي تترتب على المنافسات بين الأحزاب وأغراضها وغاياتها، ولكننى أسوق لكم واقعة لا تحلو من النظرة:

كان ذلك في سنة ١٩٣٤ وكانت جلسة مجلس النواب منعقدة للنظر في موضوع التعليم الإلزامى، ولى فيه آراء خاصة ترمى إلى تيسير التعليم ونشره وتعميمه مع الاستغناء عن الزحرف والأناقة والتعاسم الكلاميات. فأخذت أتكلّم عن هذا طويلا وأطلب أن تتخذ تركيا قدوة حسنة، فإنها قضت على الأمية أو كادت في زمن وجيز. وشعرت بأن كلامي أحرز قبولا

حسنا فقد صفقوا له طويلا حتى خيل الى أن الكثرة أصبحت تعبذ رأيي وبادرت بوضع اقتراح وقع عليه معي ثلاثون نائبا وقدمت الاقتراح وصممت الحكومة على رأيها. ثم طلبت أخذ الآراء فجعلوا يندون الأسماء وكنت أسمع في شيء من الدهشة توالى كلمة "موافق . موافق" تردد من جوانب المجلس المناصرة للحكومة، فوقفت عندئذ في شيء من الضيق وسرت في الممر نحو أحد أبواب قاعة المجلس ثم خطر لي أن أقف هنيئة بجئات وقفتي خلف مقعد أحد النواب الذين وقعوا معي على الاقتراح، فإذا به هو أيضا يقول موافق. أخذ مني النيط مأخذه ووضعت يدي على كتفيه أهزهما بعنف وقلت له إنك وقعت معي على الاقتراح، نقد وقعت معي على الاقتراح. فاضطرب لهذه المفاجأة وأجاب "أحسبك خرجت. أحسبك خرجت" وغلبنى الضحك وروح جوابه عن نفسي، وجلست، ورفض الاقتراح. ولست أقصد أن النواب يخالفون ضمائرهم ولكن بينهم من يغالى في الحيلة أو يبالغ بغير ضرورة في الرضوخ لآلة نظمة الحزبية حتى في غير المسائل السياسية.

والآن فلنتقل إلى صوت الناخب. فما الناخب إلا وكيله ورسوله. وكيله الذي وضع فيه ثقته فاختاره لأشرف مهمة. ورسوله إلى مجلس النواب ليشارك في الهيمنة على مصالح البلاد. فهذا الصوت، صوت الناخب، يجب أن يحرص عليه صاحبه ويضمن به ولا يمنحه إلا لمن يعتقد فيه الخير لبلاده، ومع هذا فكثيرا ما رأينا أن الناخبين يلمسون بأصواتهم :  
( أولا ) المنفعة الخاصة .

( ثانيا ) نكاية النائب لأن له بغير أسرته صلة .

( ثالثا ) الظهور بمظهر الوطني المخلص في بلده إذا اعتقد أن الكثرة في قريته خاطئة فيجاري القرية .

وقد شاهدت أمثلة كثيرة من هذه النشآت ، وأذكر أنني أنقذت سنة الثورة سنة ١٩١٩ موظفا صغيرا من موت محقق ، وأنقذت حياته بتعريض حياتي وحريتي للخطر ، ثم أحيل إلى المعاش وساعدته في تقرير المكافأة له ، واستقلت أنا أيضا ومضى على ذلك زمن طويل ، وفى يوم من الأيام عرفت مقره في إحدى القرى ووجدته جادا في مقاومة انتخابي فشعرت بصدمة قوية ، ولكنني ظننت أنه يعمل باعتقاد ، فأخذت أتمس له بالمعاذير ، غير أنه اعترف بأن منفعة مادية ضئيلة هي التي جذبتة إلى الطرف الآخر ، وأخذ يؤكد لي مع هذا أنه لم ينس ما لي عليه من يد .

وكثيرا ما وجدت أسرار تتعول على نكاية في العمدة أو في أسرة تتافسها في البلد عرفت بالميل إلى .

ومن غريب ما صادفته في الانتخابات أنني علمت أن ناخبا يعمل على مناوأة مهمة ونشاط متقلا من بلد إلى بلد ، فسألت عنه أحد أصحابه فقال إنه أخبرنى أنه يريد أن يلفت

نظري إليه فقلت إنها لطريقة رقيقة حقا أن تلتفت إليك شخصا بأن تقذفه بحجر، فقابله ثم عاد إلى يقول بأن هذا الناخب يعرف بأنها طريقة شاذة ولكنها ناجعة، فهو يقول عني بأني تعودت الأذهار تلقى على بكثرة حتى أصبحت لأعيا بها، أما الحجر فقد نجح فعلا في أنه لفت إليه النظر. وفي إحدى القرى تلقانا شاب مثقف بقصيدة من نظمه فصال وجال، وبالغ في المدح والترحيب ماشاء الخيال، ثم علمت أنه قابل بعد ذلك منافس قريبي الذي كنت أدعوه بقصيدة أخرى عديماء لا تقل عن قصيدتنا فصاحة وبلاغة، وعدنا إلى بلدة كبيرة ثانية فأنبرى الشاعر نفسه للخطابة والقرية كلها تسمعه في عجب ودهشة، وأخذ يرير الرياء والتناق، ويصف بهما نفسه في صراحة صارخة وبلغ به الأمر أن قال "لو كانت الانتخابات وجدت في زمن النبوة لسمح بها الدين"

وهنا سمعت دمدمة من رجال القرية، ورأيتهم في هياج شديد، فوفقت أدافع عن الشاب فقلت إنه على الأقل صريح في نفاقه، وإن كان الدين لا يمكن أن يأمر بالتناق، ثم جعلت أعتذر عنه لأخفف من سخط القرية فقلت: وإنه لشاعر والشعراء في كل واد يهيمنون، وهم يقولون ما لا يفعلون، ثم زعمت أنه أخطأ التعبير فإن الذي دفعه إلى ذلك ليس هو الرياء بل فرط الحياء فهو يكرم ضيوفه بأعز ما عنده — وأعز شيء لديه شعره — وهذأت تائرة القوم فاطمأنوا وانصرف الشاعر فرحا لخلاصه من ورطته وصدقت القرية معنا في الانتخاب، وأصبح المرشح عضوا بمجلس النواب.

وهكذا ترون أيها السادة أننا نقامى الويل ونكابد أصناف العناء مع الناخبين الذين يرون في الانتخابات أفضل مناسبة للتدلل، وقد تعودوا أن يسمعوا من النواب أعذب الأقوال واجمل الوعود، وقد يكون المفضلون والمهرجون من المرشحين هم أصحاب الخطر الأوفر في الحصول على الثقة بسبب تأخر البلاد في ثقافتها، وتأخرها في الحصول على حريتها، مما جعلها بعيدة عن المراتبة في اختيار الرجال وحسن تقديرها لهم، والنضوج السياسي لا يمكن أن يأتي طفرة واحدة بل هو يأتي مع طول الزمان وطول النضال.

ولكن على أي حال يجب أن نذكر أننا في بدء حياتنا النيابية، وقد مضى على الممالك الدستورية أجيال وأجيال تمارس فيها هذه الحياة فاكنت سبت مرانة وخبرة.

وسترى الأجيال المقبلة إن شاء الله ناخبين ونوابا جديرين بمجد مصر التاريخي العظيم، وترى البلاد برلمانا جديرا يتفوق على أمثاله في العالم نظاما ونشاطا وعملا مجديا متجا نافعا.

ولا يفوتني أن أذكر أن الحياة النيابية على ما فيها من عيوب هي خير أنواع الحكم وأن البرلمان المصري على حداثة عهد البلاد به أسدى إليها أبادى جليلة وقدم لها خدمات كبيرة إذا لم يعترف بها بعض المعاصرين فإن التاريخ سيذكرها له بالتمجيد والتحييد والإجلال العظيم.

ابراهيم دسوقي أباطله